محمد أوغلي محمد ...

قصة بقلم الدكتور جورج حنا

فور تسلمي شهادة الطب عام ١٩١٦ ، جرتني الدولة العثمانية جرا الى الحرب كطبيب مكلف في الجيش رغم ان البرتوكول الذي اتفقت عليه مع الدول الاوروبية بعد حوادث ١٨٦٠ المشؤومة جعل لبنان متصرفية ممتازة ، ذات استقلال ذاتي ، واعفى اللبنانيين من الخدمة العسكرية . غير ان الدولة العلية ، اذ دخلت الحرب الى جانب المانيا ، نقضت هذا الاتفاق وجرت معظم الاطباء اللبنانيين الى الجيش ، لحاجتها الماسة الى اطباء . كنت انا واحدا منهم .

كانت اول فرقة عسكرية عينت فيها ، مختصة بتدريب الجيوش قبل سوقها الى القتال .. مركزها « طوبراق قلعة » في ولاية اضنة .

***

وطوبراق قلعة قرية صغيرة تقع في منبسط تحوطه جبال ، تشرف على بوغاز الاسكندرونة .. مساكنها اكواخ ، مصنوعة من جذوع الشجر، والقش ، والفزار ، ومطلية من الداخل والخارج ببراز البقر ، لمنع الحر في الصيف ، والبرد في الشتاء .. سكانها المئة عدا ، كلهم اميون ليس بينهم من يقرأ كلمة و يكتب حرفا ، غير المختار والامام ، المنتدبين من الخارج لمختارية القرية وامامتها ، الاول لجباية الضرائب ، والثاني لاعداد مخاليق الله للدخول الى السماء .. نساؤها - كرجالها - يلبسن سترة مزمومة على الصدر ، فوق سروال فضفاض يصل الى الكاحل . اطفالها هزلى معمشو العيون ، بسبب قلة التغذية وفقدان الوسائل الصحية .. دخلها من الارض يكاد لا يكفي لسد الرمق .. غير ان وجود الجيش المخيم فيها وما حواليها ، فتح لها بابا لدخل جديد ، يكسبه اطفالها مما يتكرم عليهم الجيش ، ضباطا وافرادا .. وتكسبه نساؤها ، مقابل ترفيههن على الجيوش المتعطشة الى الترفيه عن نفسها . وقد كانت امرأة طوبراق قلعة كريمة الى ابعد الحدود بهذه المنحة ، تقدمها احيانا خلالا زلالا دونما تعويض ، واحيانا اكثر ، مقابل ما يسمح به خاطر من تجود عليه المرأة بعطائها ، نزولا من عشرة قروش الى رغيف من ارغفة الجيش (المسمى التعيين) .. امرأة طوبراق قلعة يتعين عليها خدمة الوطن ، وحقها على الوطن ، ان يشكر لها خدمتها الوحيدة التي بمكنتها القيام بها . ومن الانصاف ان نقول ، ان امرأة طوبراق قلعة ، ما كانت تبخل بهذه الخدمة على احد . وبوسعنا التوكيد ، ان بين مواليد طوبراق قلعة ، عددا لا بأس به ، ترجع بنوته الى اب من الجيش العثماني المظفر .

في هذه القرية التركمانية عشت شهورا خمسة .. عشتها طبيبا بالاسم ، وبالبزة العسكرية ذات الكتيفتين الصفراوين ، والسيف على جنبي ، والستمائة قرش في اخر كل شهر . اعالج مرضاي بما تفتقت عنه عبقرية سرطبابة الجيش من علاجات لا تشفي مريضا ولا تبلسم جرح جريح .. صبغة اليود لمن يشكو وجعا .. وغلي ورق الزيتون لمريض بالملاريا ، في منطقة بيتها وبين الملاريا معاهدة صداقة وحسن جوار . اما المتمارضون وما اكثرهم- فمعالجتهم بكف على الوجه، او بيوم استراحة من التمرين العسكري عندما تتحرك في الشفقة على المتعبين منهم .. ساعة في الصباح اقضيها « على الواقف » مع زبائني .. واقضي الساعات الاخرى في « اكل وشرب وطق حنك » مع رفاقي الضباط .. ولينهب الطب كعلم الى الجحيم .

وكان يوم صدرت فيه الاوامر الهمايونية ، بوجوب انتقالي على وجه السرعة ، الى « زيتون بيلي » الاقرب من طوبراق قلعة الى بوغاز الاسكندرونة . ومع انتقالي لهذه القرية تبدأ الحكاية التي ارويها بتفاصيلها ، كأني اراها الان امام عيني .

بين طوبراف قلعة وزيتون بيلي مسافة عشرين او خمسة وعشرين كيلو مترا ، في طرقات لولبية وعرة وموحشة . وقد قطعت المسافة راكبا على حصان ، تكرمت علي به القيادة بوصفي طبيبا وضابطا .. كما تكرمت كذلك بجندي من المفرزة الصحية ليرافقني في الطريق . اخترت السفر ليلا تخلصا من الحر المذيب في صيف المنطقة .. الطريق مقفرة من الناس .لا صوت يسمع الا اصوات ابناء وبنات آوى ، تعوي سمفونياتها في سكون الليل ، لتطيب خاطر المسافر وتسليه في وحدته.

سرت مع رفيقي شريف على بركات الله .. وكان رفيقي شريف - وهو عربي من دمشق - يسقيني بنكاته الشامية .. ويقذف المسبات المجلجلة ، من صنع شباب المرجة ، على الدولة العثمانية « عدوة العرب » .. طالبا الى الله ان يمنحها الظفر بالهلاك ، لكي يتخلص العرب من حكمها وتحكمها ووجودها .

في منتصف الطريق ... وفيما كان رفيقي يكدس المسبات اكداسا فوق اكداس بين نكتة واخرى .. طن في آذاننا انين من وراء كومة صخور . كان الليل حالك العتمة ، وسكون الليل يدخل الرعب حتى في قلب حضرة الضابط اليوزباشي في جيش السلطان ابن السلطان ، السلطان الغازي محمد رشاد خان .

مشينا نحو الصوت .. فرأينا مشهدا يعصر القلب عصرا .. فتى دون العشرين سنا .. عليه لباس الجندي ، كان متقوقعا ككلب ، رأسه غارقا في بركة ميء قذفته معدة احرقتها الحمى ، ووحله التراب .. وكان غارقا في بركة ميء قذفته معدة احرقتها الحمى ، ووحله التراب .. وكان الذباب يحوم عليه ، ويأخذ غذاءه منه .. وكانت جحافل القمل تسرح على وجهه وعنقه ، وتمتص الحياة من دمائه بسهولة ويسر .. وكانت رجلاه متورمتين كالمصاب « بمرض الفيل » . ويده اليمنى على مكان القلب فيه كأنه يخشى ان تتوقف نبضات قلبه .. وكانت قبعته العسكرية قد افلتت عن رأسه لكي لا تحرم الذباب والقمل من خصب الارض التي ترعى فيها .. اما سرواله المسمى بنطلونا ، فكان معمدا بالبول والقيء ، المنطلق من بطنه رغوة بعد رغوة ، فتفوح المكان برائحة كرائحة جثة حيوان عفنة .

اقتربنا من الفتى واصابعنا تشد على انفينا لهذه الرائحة الكريهة . واذ سمع خشخشة خطانا ، صاح « آمان جانم .. صو .. صو .. الله اشكنا صو » (ماء ماء من اجل الله ماء) .. فبان لسانه الاسود سواد الفحم ، من بين اسنان هي ايضا بسواد الفحم ..

وحاولنا ان نعرف منه شيئا ، فلم نأخذ غير كلمة « آمان جانم .. صو .. صو .. الله اشكنا صو » .

ومد رفيقي شريف يده الى ما تحت سترة الفتى .. وسحب الهوية المعلقة في عنقه ، ككل عسكري في الجيش .. « احمد اوغلى محمد ، من مدينة دياربكر ومن مواليد ١٣١٥ هجرية .. فرقة ٤٤ .. الطابور الاول».

اذن الجندي من افراد الطابور المرسل انا اليه ؟

عبثا حاولت الاستفهام عما به . فكان جوابه الوحيد « آمان جانم صو .. صو .. الله اشكنا صو » . وقد سقاه شريف من مياه المطرة على جنبه .. فامسكها بيديه وكرعها الى اخر نقطة .. وما ارتوى .

قال لي شريف - وكان اخبر مني بمعنويات الجيش الهمايوني - « فراري هارب من جحيم الجيش » . قالها وهو يكيل المسباب « للدولة العلية » .

قلت : دعنا من هذا الان .. قد يكون فراريا او لا يكون .. ولكنه على كل حال انسان .

مسست جبهته ، فكادت يدي تحترق من ارتفاع الحرارة في جسمه ، الى ما فوق الاربعين .. وشاهدت على صدره وبطنه ، بقعا حمراء داكنة ، تسرح عليها جحافل القمل . انه التيفوس .

وامام هذا المشهد المأساة ، وقف « النطاسي » ببزته العسكرية

والسيف المتدلي على جنبه ، مكبل اليدين ، ليس لديه ما يساعد هذا المسكين ، غير وعد كاذب يطمئنه به ، وجرعة ماء من مطرة تبلل لسانه دقيقة او دقيقتين .

طلبت من رفيقي شريف ان يبقى الى جانب الفتى ، ريثما اعود من مقر القيادة ، بشيء نستطيع ان نعمله له .

وخلع شريف عنه سترته العسكرية ، ولف بها الفتى الهارب الى الموت ، بعد ان نظف الاقذار عنه بمنديله .. وجلس فوق رأسه كما لو كان امه بالذات .

ولم اكن اجيد ركوب الخيل في حياتي . غير ان هذا المشهد المروع ارتجل في الشجاعة . فامتطيت حصاني (الذي وقفت بانه غير حرون) .. وهمزته بمهماز هو من مكملات البزة العسكرية .. وطرت مع الريح ، وانا متمسك باللجام ، ومسمر على ظهر جوادي ، خوفا من ان اقذف الى الارض الموحشة .. وقطعت العشر كيلو مترات الى مقر القيادة بنصف ساعة .. ووصلتها مع الفجر . ★★★

كان صاحب السعادة القائد واقفا امام خيمة القيادة ، المنصوبة على هضبة تشرف على المخيم في السهل ، وتبعد عنه مسافة مئة متر .. يرتفع فوقها علم القيادة . وكان للخيمة بابان ، باب امامي يشرف على المخيم ، وباب خلفي لقضاء حاجات القائد الخاصة .. على جوانبها فسحة مترية مزروعة بالازهار السريعة النمو ، كان صاحب السعادة يفرك عينيه المهشتين بعد ليلة نامها ملء جفنيه ، وهو يراقب تمرين الجيش بنظارته العسكرية .

ضربت لسعادته السلام العسكري ، كما كنت تعلمته انا الضابط اللامسلكي المستعار بالقوة بطبابة الجيش .. فبسم لي ، وتواضع في مد يده لمصافحتي .

كان هذا القائد طويل القامة بهي الطلعة .. على كتفه جديلة ذهبية اللون ، يزينها تاج وسيف ، ككل من هو برتبة امير لواء .. وجه ابيض ، وعينان زرقاوان ، وشعر اسود ، وشاربان معكوفا الطرفين كشاربي عنترة بن شداد .. وكانت على صدره مدالية الحرب ، ومدالية المجيدي من الدرجة الممتازة .. وكان يتكلم الفرنسية المكسرة ، ويساعدها باشارة من يديه ، وغمزة من عينيه عندما تفوته الكلمة الفرنسية .. وكان يتأنق في لباسه اكثر من سائر الضباط تكونه من عائلة اسطمبولية عريقة .. كان يحكى عنه (بالسر طبعا) انه مولع بمعاشرة الفتيان . وقد ارسل مرة الى جبهة القتال من جبال اريحا ، وبقي فيها شهرا واحدا فقط ، وكوفىء بالتاج على جديلته لبطولته في استراتيجية الهزيمة امام العدو . وكان ـ على ما يدعي ـ من اعرق العائلات الاسطمبولية ، التي كان منها خمسة باشاوات ، احدهم ابوه بالذات . وكان لهذا القائد الارستوقراطي حظوة خاصة عند « الباب العالي » وكبار اركان الدولة ، لا تسمح بعرضه لاخطار القتال .. انه هنا قائد تدريب ، يخطط ويدرب ، ويسوق القطعان البشرية الى الموت ، وهو عن ساحة الموت بعيد .

ما ان وقفت في حضرته حتى قال :

« اهلا (دقتور به ...) لقد وصلنا الامر بتعيينك طبيبا للطابور الاول في فرقتنا . الطابور في قرية زيتون بيلي على بعد كيلو متر من هنا . لبناني انت اليس كذلك ؟ (نعم يا سيدي) .. ما اجمل بلدك !. امضيت فيه شهرا من اجمل ايام العمر في « السفر برلك » .. اتكلم العربية قليلا .. كم كلمة لا غير .. واعرف ابناءنا العرب وبطولتهم .. ما اخبارك عن بلادكم (شكرت ربي لانه لم يترك لي فرصة لابتكار الاكاذيب ولم اجرؤ على ان اخبره الحقيقة) .. اهلا بك .. انا مستعد لكل خدمة » .

شعرت في لهجة كلامه عن العرب ، انه على علم « بمحبة اللبنانيين والعرب لدولته العلية » .

كان حضرة القائد لطيفا معي الى اقصى حد . فتشجعت وسألته باكثر ما يكون من الوداعة والاحترام : هل يسمح سيدي الزعيم بكلمة ؟

ـ يا هلا دوقتور به .

قصصت عليه ما شاهدته في الطريق عن الفتى الهارب الى الموت .. وطلبت منه باستجداء بالغ ، ان يأمر مستشفى القيادة ، ليزودني بما استطيع به مساعدة الانسان الذي قصصت عليه امره .

ـ أسمه ؟

ـ من الهوية المعلقة في عنقه هو احمد اوغلي محمد من ديار بكر ، من مواليد ١٣١٥ ، ومن افراد الطابور الاول في فرقة ٤٤ ، اي الطابور الذي سأكون انا طبيبه. حك الزعيم رأسه المنفوش الشعر وعاد الى فرك عينيه:

ـ اجك اوغلي أجك ! (حمار ابن حمار) فراري هارب من الطابور. كلب من الكلاب الذين يفرون من الجيش بينما الوطن في خطر .. انه يحتضر ؟ وماذا في ذلك ؟ دعه يموت .. ان الله ينتقم منه قبل ان تنتقم منه نحن .. خائن ابن خائن يستحق الاعدام !

قلت في سري : « ما اكفركم بالله الذي باسمه تدينون البشر ! » غير اني اذ رأيته يبتسم لي ، ويتعمد التحدث معي بفرنسيته المكسرة ، تشجعت والححت بالطلب وقلت له :

ـ قد يكون هذا الشاب فراريا او لا يكون . فاذا شفي ، تدينونه بما يستحق .. غير انه حتى الان انسان !

قال : ـ فراري خائن .. يبدو يا عزيزي دوقتور به ، انك رقيق الشعور ككل الاطباء .. رقة الشعور لا مكان لها ايام الحرب .. هل سألته متى ترك الطابور .. هل رأيت معه سنكة وبارودة ؟

ـ من متى ترك الطابور ، لا اعلم .. على اني اقدر ، من حالته ، انه في المكان الذي وجدته فيه ، منذ كم يوم .. ما رأيت معه لا بارودة ولا سنكة .. كل ما يتلفظ به .. الله اشكنا صو .. صو ..

ـ فراري خائن مئة بالمئة .. كويك اوغلي كويك (كلب ابن كلب).

ـ من يعلم يا سيدي اذا لم يكن قد مر به احد ، وسرق بارودته وسنكته وهو في حالة اغماء ؟

هز الزعيم رأسه ، وابتسم في شيء من الخبث ، وعدم الاقتناع بما قلت .. وربت على كتفي بلطافة بالغة ، لجهلي مثل هذه الامور .. وقرن لطافته « بمون شير دوكتور » .

ـ رغم تأكدي بان انسانك هذا خائن وفراري ، فلن ارد لك اول طلب تطلبه مني .. وستعرف فيما بعد ان من تشفق عليه لا يستحق شفقتك .. اتمنى له الشفاء ، لتنتقم منه قبل ان ينتقم منه الله .

كان كلما مر امامه احد الضباط يضرب له السلام العسكري ، فيرد هو عليه بعدم اكتراث .. هو الزعيم وامير لواء ، وسليل اعرق عائلة اسطمبولية .

غادرت الزعيم على الاثر بعد ان امر رئيس اركانه ، ليتلفن للمستشفى كي يسلمني ما اطلب .. وودعته بالسلام العسكري .

ومع شروق الشمس حملت ما اخذته من المستشفى ، واسرعت الى حيث تركت احمد اوغلي محمد ، مطروحا في البركة الموحلة ، يصارع الموت .

★★★

كان احمد اوغلي محمد ، يلفظ اخر انفاسه . وكان رفيقي شريف واقفا فوق رأسه ، وفي عينيه دمعة .

وجعل شريف يحفر بيديه الاثنتين حفرة في تلك الارض الموحشة ، ويحمل الجثة اليها .. وهو يتلو الفاتحة .

وفيما كان شريف ينقل الجثة الى القبر ، سقطت من وراء ستره الميت محفظة صغيرة ، مبللة ومهترئة الحوافي .. فيها مصحف صغير ، وصورة فتاة ، يبدو من هيئتها انها بنت خمس عشرة سنة ، ما عرفنا اذا كانت اخته او خطيبته او حبيبة على قلبه . فالتقطها شريف ، ورفعها على صدر الفتى الميت ، فوق قلبه الصامت .

★★★

تركنا الفتى اليافع مطمورا تحت التراب في مجاهل المنطقة ، بعيدا عن اهله والحبيبة التي دفناها على صدره . تركناه حزينين على فتى بعمر الورود يموت ميتة كلب ، في وطن حكامه يلعبون بمقدرات الانسان، ويرقصون على قبور من يرسلونهم الى الموت .

وافرغ رفيقي شريف كل ما عنده من مسبات على الدولة العلية .

ثم تابعنا السير الى الطابور ، المهيأ للزحف على العدو في جبهة القدس .. حيث امضيت شهرا واحدا ، شاهدت فيه انهيار الجيش العثماني .. وسقوط الاف « احمد اوغلي محمد » في « ميدان الشرف » فداء عن وطن السلطان ابن السلطان السلطان محمد رشاد خان .

جورج حنا